الأستاذ موهوب أحمد جامعة جيجل

علاقة النقد بعلم النفس وعلم الاجتماع :

عرف النقد الأدبي الحديث مسار يختلف عن النقد الأدبي قديما من خلال انتقاله وخروجه عن الأساليب القديمة في معالجة النصوص ، وهذا راجع إلى ما عرفه العقل الحديث من تقدم وتطور في مختلف العلوم وبروز عدة مناهج خارجية وداخلية، ساهمت بشكل مباشر في تحليل أي عمل فني وأدبي ، فعند ظهور هذا النوع من النقد المنهجي أصبح الناقد يبحث عن أمثل شكل للمعرفة يمكن تسليطه على الأدب لتقويمه والحكم عليه .

فإدخال الابن العلمي واستعماله كعامل جديد يعتمد عليه في إنماء البصيرة الناقدة أمر في غاية الأهمية ، غير أن إدخال مثل هذا الجانب قد يساهم في ضرب حقيقة النقد الذي كان سائد من قبل ، لكن من جهة أخرى يجعل من النقد أمام باب مفتوح على العلوم ليصبح يتميز بنوع من الدقة والعلمية ، فيكون بذلك بين أيدي غير المخصصين .

فالنقد الحديث تمكن من أن يغير ويوسع نظرية إلى الأدب ، من خلال إجتيازه للنظرة القديمة المنحصرة على الجانب الجمالي والفني ، ويعود هذا إلى كون النقد الأن يتميز بميزات العلوم المعاصرة المتنوعة خاصة في الأساليب والمناهج ، غير أن هذه العلوم هناك من ساهم في تطوير العمل النقدي ، وهناك ربما من أفسدها فجعل النقد يخرج عن نطاقه الأصلي والطبيعي .

هذا لايعني أن النقد لا يحتاج إلى العلم وإلى المعارف الإنسانية ، بالعكس يمكن أن يستعين بكل ما أحرزه العقل من تقدم للكشف عن أبعاد هذا التفسير الأدبي ، ذلك أن النقد ينبغي أن ينظم تجاربه المستمدة من الأدب الخالق في ضوء النتائج التي استخلصها من العلوم الاجتماعية والإنسانية .

فالنقد لا يعتبر فن قائم بذاته ولنفسه ، منفصل عن مختلف المعارف والعلوم المختلفة ، فهو يحتاج إلى مثل هذه المعارف المختلفة حتى تكون قراءة شاملة لكل نص أو إبداع أدبي ، لأن النقد يبقى في الأخير خادم للفن وناشر رسالته ، وكيفية القراءة لا تكون منحصرة في مجال دون مجال أخر ، وإنما تكون بالإحاطة على هذا الإبداع من جوانبه المختلفة الفني والجمالي والتاريخي والنفسي والاجتماعي واللساني.....

فالنقد يجب أن يكون له دور في معالجة الآثار الأدبية بجدية وبانتظام ، بالكشف عن خبايا تلك الآثار وأفكارها وقيمها ، والبحث عن الصلة بين الأدب وإيديولوجيات العصر ، وبين الأدب وحياة الفنان وعلاقته بالمجتمع في الماضي والحاضر ، وكذا البحث في شخصية المبدع وحالته النفسية ..... فيجب على الناقد أن يكون مثقفا ولغوي واجتماعي وطبيب نفسي حتى يستطيع الإلمام بكل ما يحيط بالأديب وأدبه أو إبداعه .

ولا بد أيضا أن يتسلح الناقد قبل أسلحة العلم بالذوق والحساسية والذكاء حتى يساعد القارئ على فهم الأثر الأدبي وتذوقه ، هذا ما يجعل العمل النقدي يتميز بالسهولة والصعوبة في نفس الوقت ، سهل لكون تربية الذوق النقدي يمكن أن يكون للجميع ، وصعب لكون العمل النقدي المجسد بالكتابة لا يكون إلا للقادر على ذلك والمتوفرة فيهم شروط النقد ، كفهمهم لنظرية الأدب ، والإحاطة بالتيارات الفكرية والنواحي الفنية المختلفة ، والاستعانة بأسباب الثقافة ، والنظر غلى الجوانب المتعددة من النقد (الأثر الأدبي ، والأديب ،ومتلقي الأدب ....) ، والإحاطة بأفكار المذاهب الفكرية والسياسية ، وفهم طبيعة العمل الأدبي من حيث هو إبداع جديد يحمل أبعاد جديدة .

إن العلاقة بين النقد الأدبي والعلم ن بوصفه فنا يستفيد من العلم علاقة جد وثيقة ،فقد كان تطور العلوم في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين سببا في ظهور مناهج واتجاهات فكرية ونقدية متعددة ، لقد ظهرت الواقعية الجديدة في روسيا ومقابلها الشكلانية الروسية في الشرق من أوربا . كما أن انتقال بعض أعلام هذه المدارس إلى الولايات المتحدة الأمريكية حيث وجدوا المناخ الهادئ والمناسب للإبداع أسهم في دراسة الأدب بأساليب وأنماط أكثر تقدما ، مما ساعد على نشوء

مناهج واتجاهات جديدة في النقد .وبرز كثير من أهم هذه المناهج والاتجاهات في بريطانيا والولايات المتحدة كما برزت بعض هذه المناهج في أرويا ، وهي اتجاهات شكلت ثورة على الرومانسية التي سيطرت مفاهيمها زمنا على النظرية النقدية .

بهذا المعنى لم يعد النقد الأدبي عالة على الأدب ، أو سردا القضايا مجردة ، أو تعليقا انطباعيا على قول ، أو قولا على قول ، وإنما تحول إلى أبعد من ذلك بفضل الثورة في العلوم الإنسانية خاصة ، وبفضل الثورة اللسانية وثورة الاتصال بشكل أخص .

إن النظريات التي تم إنجازها في ميدان العلم ،لم تكن بعيدة عن متناول النقد، فقدت النظريات النقدية لا تنهض إلا على أسس فكرية وخلفيات فلسفية وجمالية ومرجعيات معرفية ، وهذه الأسس وتلك الخلفيات بينت أصلا على علوم اجتلبت من مختلف الحقول مثل علم النفس ، وعلم الاجتماع . وعلم الجمال ، والمنطق، والتاريخ، والفلسفة ، والانثروبولوجيا ، ناهيك بعلوم اللغة والثورة اللسانية والسينمائية .

ولعل نظرة واعية إلى مناهج النقد الأدبي تطلعنا على أن هذه المناهج أستند كل منها إلى خلفية معرفية أو فلسفية أفاد منها ، فبعضها استند إلى الفلسفة الاجتماعية وبعضها أفاد من التاريخ وعلم النفس ، ونتج عنها ما يسمى بالمناهج الخارجية ، كالمنهج التاريخي والمنهج النفسي والمنهج الاجتماعي ، وبعضها أستند غلى علوم اللغة ، كما فعل الشكلانيون الروس والنقاد الجدد فأبرزوا ما يسمى بالمناهج الداخلية (الشكلانية الروسية والنقد الجديد) ، ثم خلفهم البنيويون في استنادهم إلى النموذج اللغوي السويسري وكذلك فعل السيميائيون الذين عدوا اللغة شفرة أو مجموعة سنن .منهم من حاول تحطيم النموذج المعرفي المستند إلى النموذج اللغوي كما فعل التفكيكيون ن وبين هذه المناهج وتلك نجد من أهمل القارئ أو من حيده أو من أعاد الاعتبار له ، كما فعل أصحاب نظريات التلقي ...

إن الدارس حين يقف أمام النظريات النقدية وقفة متأنية فإنه يجدها إما نظريات عنيت بالشكل أو صرفت عنايتها إلى المضمون ، أو نظريات دعت إلى غلق النص على حساب القارئ أودعت إلى فتح النص ومنح القارئ حرية التلقي ، أو توسطت بين هذا وذاك ، وما عدا ذلك فهو تنويعات على النظرية

وقراءات متنوعة وواسعة لها بفضل تطور العلوم الإنسانية وعلوم اللغة التي رفدت النقد الأدبي ، والتي لم تكن متاحة للنقاد الذين سبقوا من اليونانيين والعرب .إنها دعوة إلى فتح النص على إمكانات قرائية واسعة ، أو علقه باتجاه قراءة واحدة : مضمونيه أو إيديولوجية ، تتوسطها دعوة ثالثة تستشف من بين الدعوتين وهي دعوة للفتح والغلق بمعنى الدعوة إلى غلق النص باتجاه ما وفتحه باتجاه أخرى أو العكس . فالمناهج الخارجية مثلا : التاريخي والنفسي والاجتماعي ، التي دعت إلى التمسك بالمرجعيات التاريخية والنفسية والاجتماعية على الترتيب ، أغلقت النص على نوع واحد من القراءة ، في حين أن المناهج الداخلية التي أعقبتها كالشكلانية الروسية والنقد الجديد فتحت النص نفسه على القراءة الداخلية الفاحصة ، ولكنها من زاوية أخرى أغلفته في علاقته بالتاريخ أو النفس أو المجتمع .

أما طروحات البنيوية وما بعد البنيوية كالسيميائية مثلا فقد دعت كل منها إلى التركيز على بنية النص وعزله عن واقعة الاجتماعي والنفس والتاريخي ، الأولى البنيوية ركزت على النص بوصفه مجموعة من العلاقات أو الأنظمة ، والثانية السيميائية بوصفه مجموعة من العلامات أو الشفرات ، وكلتاهما أغلقت النص باتجاه قراءات أخرى ممكنة ، مما يؤكد أن عملية فتح النص أو غلقه هي عملية نسبية سواء بالنسبة للمنهج الواحد أو النسبة إلى المناهج بمجملها .

لقد غدت هذه المناهج والنظريات النقدية جزءا من تاريخ الفكر والمعرفة ،بما يؤكد ليس أهميتها التاريخية وحسب بل وأهميتها المعرفية والمنهجية على حد سواء.ومثلما امتدت تطبيقات الشكلانية الروسية والنقد الجديد إلى البنيوية ووجدت أصداءها فيها ، فقد امتدت تطبيقات البنيوية إلى مختلف المجالات المعرفية وإلى المناهج اللاحقة وهي ما بعد البنيوية .

كما امتدت مناهج الحداثة إلى ما بعد الإحداث من تفكيكية وسيميائية وتأويلية متمثلة في مساءلة الحداثة عما قدمت ،وكأن الحداثة تعيد تشكيل نفسها في صياغة جديدة ورؤية جديدة .ومن هنا تبدوا أهمية الإشارة إلى الخلفيات المعرفية لهذه المناهج وتطبيقاتها وعلاقتها بالعلوم الإنسانية،بالقدر الذي يضيء للدراسة التحولات الفكرية التي أنتجتها وأسهمت في تطويرها .فقد استعارت هذه المناهج من الفلسفة أدواتها وشروطها ومن العلوم مناهجها وأبعادها الثقافية والحضارية .

فظهور المناهج الحديثة لا يعني إلغاء المناهج القديمة ، كما إن المناهج الأحدث لا تلغي الحديثة ، فالمناهج لا تموت ولكنها تتجاوز وتبعث في مناهج أخرى ، ومجموع هذه المناهج والاتجاهات هو ما يشكل النظرية النقدية العالمية الحديثة .كما إن هذه المناهج قد تكون معدودة ،ولكن طرائق قراءة النص أو إستراتيجيات القراءة التي تنشأ عن هذه المناهج لا حد لها ، ولا حصر[1]

ويستطيع دارسي النظرية النقدية المعاصرة أن يضعها في أربع مناهج : أولى هذه المناهج (المناهج الخارجية) أو السياقية ، بالنظر إلى النص من خلال إطاره التاريخي أو الاجتماعي أو النفسي ، وتؤكد على السياق العام لمؤلفة أو مرجعيته النفسية ومنها التاريخي والإجتماعي والنفسي ، وهي دعوة ضمنية إلى الإلمام بالمرجعيات الخارجية ، مع تحفظ على الدخول في النص إلا من خلال تلك السياقات المحيطة بالمبدع .

- النقد الأدبي وعلم النفس :

لقد استفاد النقد الأدبي من علم النفس استفادة لا يستهان بها ، كون الأدب لا يتشكل من العدم ، دون أن يكون دافع لإنتاجه وتشكيلية ، لأن الأديب جزءا أو بعضا من هذا الإنتاج الذي يمر وفق مرحلة نفسية أحساسية وشعورية ولا شعورية، فالإنتاج الأدبي قبل كل شيء هو إنتاج نفس بشرية لها نوازعها ورغباتها ووعيها ولاوعيها وطرائقها في التفكير والمعالجة . وتقوم فكرة التحليل النفسي على أساس التسليم بنظرية العقل الباطن التي تفترض تقسيم الحياة العقلية إلى قسمين : العقل الظاهر أو الشعور ، والعقل الباطن أو اللاشعور ، وتنطلق هذه النظرية على أساس أن تفكيرنا الظاهر وتصرفاتنا الشعورية ما هي إلا نتيجة عمليات نفسية لا شعورية تجري في العقل الباطن مستقلة عن إرادتنا ، ويمكن التدليل على وجود العقل الباطن بإجراءات التحليل النفسي وبظواهر التنويم والأحلام والظواهر النفسية الشاذة أو المرضية [2] .

وينتهي التحليل النفسي إلى أن الإبداع الأدبي ليس إلا حالة خاصة قابلية للتحليل، لأن كل عمل فني ينتج عن سبب نفسي، ويحتوي على مضمون ظاهر وأخر خاف مثله مثل الحلم أي : أنه انعكاس لنفس المؤلف .من هنا كان لزاما على دارس الأدب أن يتلمس بواعث الإبداع النفسية.

فالنقد القائم على التحليل النفسي عرف منذ القديم ، لكن لم يصبح اتجاها إلا بعد أن ظهرت نتائج دراسات الفرو يد بين اللغة والباطن، كذلك بعد أن أفاض (يونج) في الحديث عن الأسطورة والرمز ، وما قدمه (سكوت) في مقدمة البحوث الثلاثة التي جمعها لمناقشة الاتجاه النفسي في النقد "النقد المعتمد على التحليل النفسي" مقررا أنه بدأ على الحقيقة بعد أن ترجم كتاب فرويد (تفسير الأحلام) سنة 1912 إلى الإنجليزية. [3]

كما كانت في الوقت نفسه محاولة (إيرنست) لتفسير مسرحية (هاملت) لشيكسبير على أساس أنها تصوير لعقدة أديب قد شاعت وشدت الاهتمام نحو علم النفس التحليلي وقدرته على إضاءة كثير من جوانب الدراسات الأدبية والفنية .

إضافة إلى ظهور (كونراد أيكن) في كتابية (شكيات) و(ملحوظات في الشعر المعاصر) وقد صدر سنة 1919 ، كذلك (ماكس إيستمان) و(فلويد دل) في تحليل النصوص الشعرية بالطريقة الفرويدية ،على أساس أن الشعر له أصول يمكن التعرف عليها وتفصيلها ، وهذه المقولة نفسها هي التي ظهرت فيما بعد ، أي سنة 1924 عند (ريتشاردز) في كتابه (أصول النقد الأدبي) ، إلى جانب كتاب (دراسات نفسية في الشعر) نشرته (مود بودكين) ، كما نجد كتاب (الشارل بودوان) الذي أصدره سنة 1929 عن التحليل النفسي للفن وكتاب (هوفمان) بعنوان (الفرويدية والعقل الأدبي) وذلك خلال بحثه عن أثر فرويد في كبار الادباء .

فمعظم هذه الكتب تقترب أو تبتعد بقدر تشبع الأديب أو تمثله لفكرة الأدب المحض وطبيعة الجمال الخالص ، وبقدر ميلة إلى الأدب الشعبي والأساطير وغير ذلك .

وبعدها ظهرت المدرسة الفرنسية بزعامة (مورون) الذي يرى أن التحليلات الفرويدية تحكمها قواعد التشخيص الطبي المفروضة عليه من الخارج ، في حين أنه يكتشف تحليلا نفسيا أدبيا بادئا من النص ومنتهيا فيه وإليه إلى الأبد [4] .

إن بروز مثل هذه الجهود والتحليلات والكتب في أمريكا واورويا ، استهوى هذا المنهج النفسي عددا من النقاد العرب فقد مواعدا من الدراسات النقدية النفسية مستفيدين من طروحات علم النفس

. ومن هؤلاء النقاد (عباس محمود العقاد ، والمازني ، ومحمد النويهي ، ومحمد خلف الله احمد ن وعزالدين إسماعيل ، ومصطفى سويف وغيرهم) ، فقد درس العقاد شخصية (أبي نواسي) في ضوء ما اسماه عقدة (النرجسية) في كتابه (أبو نواس الحسن بن هانئ) وفسر ما أسماه (أفات أبي نواس) بالظاهرة النفسية المعرفية بالنرجسية كما قدم (المازني) دراسة عن (بشاربن برد) تمثل نموذجا واضحا لفهو (إدلر) عن (عقدة النقص) ، يحث يرد إبداع بشار وولوعه بهجاء الناس وشتمهم إلى عقدة نقص يعاني منها بسبب كونه أحد شعراء الموالي أولا ، وكونه شاعرا كفيفا ثانيا .

لكن يبقى المنهج النفسي يجيب عليه معاملته العمل الأدبي بوصفه وثيقة نفسية ذات مستوى واحد علما بان العمل الأدبي يتشكل من طبقات ومستويات كان أحد هذه المستويات المستوى النفسي . وهنا يبرز تساوي العمل الفني الجيد والعمل الرديء في دلالته على نفسية صاحبه مما يؤدي إلى انتقاء القيمة الأدبية وهي لب العمل الأدبي ، وعلى أساسها يجب الانطلاق غلى تقويم العمل الأدبي بوضعه بينه لغوية وجمالية .

كما أن المنهج النفسي أنتج دراسات متقاربة أو شبه متقاربة سواء في الأدب الغربي أم العربي . غير أن نظرية التحليل النفسي من النظريات التي ذاع يسلطها لأنها ببساطة تقوم على التفسير الشامل لجميع النصوص المنجزة بالتوغل في أعماق السلوك الإنساني ، والأثر الإبداعي الفني من واقع الحياة الاجتماعية ومن خلال ما يطرأ عليه من مؤثرات سيكولوجية ما جعل الحكم والتفسير والتأويل معولا على التحليل النفسي من منظور النشاط الإنساني القائم على الرغبات والرغبة موجودة لذاتها وبذاتها في الوجود بكل مظاهر الحياة، إذ فلا مناص من مسار نقدي قائم على التحليل النفسي الأدبي محاولا أن يخضع الأثر الفني إلى اعتبارات عدة جمالية كانت أو أخلاقية من خلال النص الإبداعي المنجز .

ففي هذا الاتجاه شرع النقد الأوروبي بخطوات سريعة وثائقية مبنية علىالتحليل النفسي في الأدب ، وقد اعتبرت الحياة بظاهريتها الكونية لا تختلف ولا تتغير، إذ الذي يتغير هو الزاوية التي ينظر منها الإبداع الأدبي وإلى المظاهر الحيوية التعاقبية في الحياة الإنسانية .

قد بات من الضروري الاتكاء على هذا المنهج لكي يستفاد من الماضي في إدراك القيمة الحقيقية الحاضرة ، ونحسن فهم الماضي على ضوء هذه الحقيقة من خلال وعي الأدب القائم على تفسيراته ، سواء كان في دلالته أم العملية الإبداعية . بذاتها والذات المبدعة المتعلقة بالأنا الجمعي .

ومعنى ذلك أن التحليل النفسي للأدب قد أثبت في مضمار تفسيراته مقدار القيمة الإجرائية بتطبيقاته على قضايا الأنثرولولوجيا والسوسيولوجيا أخذ بإثبات إلقاء ضوء جديد على تطور المجتمع ، ومن منظور الحضارة المعاصرة ، ومن خلال دراسات عينة لشخصيات أدبية ومن سيرهم الذاتية ، أو من خلال الشخصيات المركبة من إنتاجهم الروائي .

وهنا نسأل : هل أراد التفسير النفسي الأدبي أن يكون فكرا علميا في حياة الإنسان الانفعالية ؟ أم أنه تعبير متأزم قلق ، متأثر باللغة التي أختص بها أسلوبه الإجرائي بتناول الشخصيات من خلال المؤثرات النفسية المدلول عليها من الذات الكلية الكونية ؟

ومن الواضح كل الوضوح أن العلاقة قائمة بين علم النفس وبين العلوم الأدبية ، والنفس الإنسانية تشكل وعاء تستوعب كل فن وعلم .

وبالفعل ، حاول النقد الأدبي أن يستفيد من منجزات العلوم الإنسانية ، كما حاول استثمار مفاهيمها ومناهجها في بناء أسلوب للمقاربة ويؤهل لإنتاج خطاب علمي مكتف بذاته ، اعتمد الخطاب النقدي على علم النفس وعلم الاجتماع وعلم الجمال وعلم اللغة ، لكن هل امتلك جواز مروره إلى دائرة التفكير العلمي ؟

مهما يكن من أمر ، فإن صفة العلم المستقل التي ينشدها النقد لن تلقي به إلا إلى دائرة العلوم الإنسانية .

النقد الأدبي وعلم الاجتماع :

تنطلق فكرة النقد الاجتماعي من النظرية التي ترى أن الأدب ظاهرة اجتماعية ، وأن الأديب لا ينتج أدبا لنفسه ، وإنما ينتجه لمجتمعه منذ اللحظة التي يفكر فيها بالكتابة وإلى أن يمارسها وينتهي منها

وفي الفلسفة المادية الماركسية أن لكل مجتمع بينت : دنيا : ويمثلها النتاج المادي المتجلي في البنية الاقتصادية للمجتمع ، وعليا . وتمثلها النظم الثقافية والفكرية والسياسية المتولدة عن البنية الأساسية الأولى ، وأن أي تغير في قوى الإنتاج المادية وعلاقته لا بد أن يحدث تغيرا في العلاقات الاجتماعية والنظم الفكرية ، وصحيح أن الخطاب الأدبي أو الفني ينتمي على وفق النظرية الماركسية إلى البنية العليا للمجتمع، وهو منعكس عن البنية الدنيا ومتأثر بها ، إلا أنه صحيح أيضا أن مهمة الأديب لا تقف عند حد تصوير الواقع مجردا مسجلا ، وإنما تتعدى التصوير إلى الاختراق والنفاذ إلى بنية التحتية ، وكشف ما يكتنف نسيجه من صراعات وتقديم صياغة نوعية لقوانين حركة المجتمع وصراعه عبر رؤية تقرأ الواقع لتستشف منه المستقبل .

فالقراءة النقدية الاجتماعية هي ، في بعض وجوهها ، قراءة الإمكانات الكامنة للتاريخ في صيرورته ، وهي قراءة للميسرة والتقدم بوصفها حاملي التغيرات الإيجابية ، وقراءة للمأزق والصراعات والتناقضات الجديدة ، وقراءة للكتابة والفن كوسائل كشف وتعبير عن التاريخ والمجتمع باعتبارها حقل المسائل المتكررة والمتجددة للحياة والمترلة الإنسانية والنقد الاجتماعي للأدب ظهر كرد فعل على النقد النفسي ، من خلال الإضافة التي قدمتها الماركسية للنظرية الأدبية العالمية ، والتي تعتبر مهمة بالنظر إلى ما شكلته طروحاتها وتنظيراتها حول الأدب إضافة نوعية من خلال ربط الأدب بالمجتمع واستجلاء ملامح العلاقات الاجتماعية وقسمات البني الطبقية والتشكيلات الإيديولوجية رغم أن الإرهاصات الأولى للنقد الاجتماعي بدأت منهجيا منذ أن أصدرت (مدام دي ستايل) كتابها الموسم ب (الأدب في علاقته بالأنظمة الاجتماعية فأدخلت بذلك المبدأ القائل أن الأدب تعبير عن المجتمع .

النقد النفسي يهتم بمجال المرسل في زواياه الشعورية واللاشعورية ، الفردية والجماعية على حساب مجالات أخرى مثل المرسل إليه والرسالة والمجتمع وغيرها، لكن النقد الاجتماعي حرص على عدة مجالات بالكشف عنها وإضاءتها بمختلف تلا ونية ، وهذا ما جعله يتميز بالعلمية .

في الإطار الاجتماعي هناك عدة مناهج وكل منهج ركز على مجال للدراسة دون المجالات الأخرى ، فالمنهج الوضعي يهتم بالأديب و الظروف الخاصة والعامة التي عاش فيها ، فكل هذا يشكل هويته

الاجتماعية وليس النفسية ، فمجال دراسته هو الحياة الاجتماعية للأديب (منذ مدام دوستال) ثم ربط الأدب بالحياة الشخصية للأديب ثم المجتمع .

وهناك من اعتمد على المنهج الاجتماعي الجدلي ، وفيه يعمد رواده إلى ربط مضامين الأعمال الأدبية بأشكال الوعي الإيديولوجي للمجتمع وطبقاته . على أساس أن هناك علاقة انعكاس وترابط جدلي بين الإنتاج الأدبي والواقع الاجتماعي والسياسي والاقتصادي اعتمادا على مقولات (الفكر الماركسي) ، خاصة مفهومي: البنية التحتية والبنية الفوقية ، وكيف تتحكم البنية الأولى في توجيه البنية الثانية ومفهوم الانعكاس والالتزام . وقد هدف هذا المنهج تحليل النصوص الأدبية بوصفها شهادات أو إنعكاسات لعناصر متفاوتة الأهمية من الحياة الاجتماعية وتحولاتها ، مركزا في تحليله على زاوية الرسالة من حيث المضمون ، فمثلا نجد (ميشال عاصي) في كتابه : (دراسات منهجية في النقد) اهتم بتحليل الأعمال القصصية والشعرية مستعرضا محاورها الرئيسية والتوقف عند مضامينها ومحتوياتها الفكرية ، ميتا علاقتها بالواقع الاجتماعي انتمائها للواقع الاجتماعي التاريخي كظاهرة من الظواهر الاجتماعية ، أو كواقعة متولدة عن العلاقات الاجتماعية التي تخضع لتطوير جدلي [6]. وبالتالي فالنص في نظره وفي حدود مفاهيم المنهج الاجتماعي الجدلي يتحرك على أرضية التاريخ والصراع بقانونه الذي يتحكم في كل العلاقات ، وبذلك يكون تعامل (ميشال عاصي) مع النص الأدبي لا في خصوصية الأدبية بل مع مرجعيته .

وهناك من أعتمد المنهج البنيوي التكويني الذي يبحث عن العلاقة بين الأعمال الأدبية والواقع الاجتماعي على مستوى التناظر والتماثل بين البنيات والأشكال الأدبية والبنيات الذهنية المشكلة للوعي الاجتماعي ، ضمن رؤية نقدية تهتم بالبنية الداخلية والفنية (للرسالة) للعمل الأدبي وبأبعاده الاجتماعية والإيديولوجية [7]. على هذا يكون هذا المنهج قد أهتم بمستوى الفهم : أي تحليل البنية الداخلية للنص بتفكيك عناصره المكونة ومساءلتها . وبمستوى التفسير : أي ربط العمل الأدبي بالواقع الذي يؤول عليه باعتباره يمثل رؤية للعالم لدى فئة اجتماعية ما .

وفي تجاوز هذا المنهج لقصور المنهج الأول بتركيز على جانب المضمون في الرسالة يكون قد مزح في دراسته للرسالة بين ما هو مضموني وماهو شكلي ، ولتوضيح هذا نجد أن (محمد بنيس)[8] .قد تبنى هذا المنهج فكان قد أولى الاهتمام لمجال الرسالة في شقيها الشكلي والمضموني ، فدرس النص الشعري من داخله في بنيته السطحية والعميقة فحلل البنية السطحية إلى عدة بنيات هي : بنية الزمان الذي كشف أن القصيدة المغربية الحديثة قد كسرت رتابة الإيقاع الخليلي ، وبنية المكان حيث أصبح الاشتغال على فضاء الكتابة في الورقة ، من حيث البياض والسواد فيها ، ومتتاليات النص في بنيته النحوية بقانونيها : الزمن النحوي وقوانين ضمائر الشخص ، والبنية الدلالية أي دلالة الجملة في القصيدة ، وبلاغة الغموض من حيث مفهوم الانزياح الذي خرق القواعد البلاغية العربية القديمة مشكلا جمالية للنص الإبداعي الحديث ، دارسا الانزياح في مستوياته الدلالية والنحوية والصرفية والتركيبية .

و يتبنى (محمد بنيسي) للبنيوية التكوينية أمكنه الانتقال من داخل النص إلى خارجه أي ألي المجتمع والتاريخ ، وهو ما تجلى في مفهوم البنية العميقة الذي لّترح فيه مضامين دلالية تفسر تجليات البنيات السطحية في القصيدة المغربية الحديثة ، موزعا إياها إلى بينت هما : بنية السقوط (هيمنة مقولات الموت ، الحرب ، الغربة ، الهزيمة) وبنية الانتظار (هيمنة صفات المنتظر المتراوحة بين المعلوم والمجهول بين الأطفال والراشدين .....).

إلا أن الملاحظ في هذا المنهج الذي تبناه (محمد بنسي) لا يهدف إلى دراسة مجال المجتمع أكثر من دراسة الأدب ، ما دامت هذه البنيات هي مطية لفهم وتفسير البنية الثقافية في مجاليها التاريخي والاجتماعي .

وهناك اتجاه علم الاجتماع التجريبي للأدب الذي يهتم بمجال إنتاج الأدب وتسويق الأعمال الأدبية،وما يرتبط بها من وسائل الاتصال والنشر والتلقي إلى جانب دراسة إقبال القراء على الأدب وعلاقة الأدباء بالمجتمع والجمهور القارئ ، ليكون بذلك هذا المنهج قد ركز في دراسته على ثلاثة زوايا في العمل الأدبي هي ك الكتابة والكتاب والقارئ،ففي سوسيولوجيا الكاتب،يدرس نشأته وأصوله الاجتماعية ومظاهر البيئة التي عاش فيها ومنابع الطبقة والجماعات الثقافية التي يرجع إليها والأجواء

الاجتماعية والثقافية التي يبدع فيها.أما سوسيولوجيا الكتاب:يهتم بعملية إنتاج الكتاب وتوزيعهومدى نجاحه،وسوسيولوجيا القراء: يدرس انتماء القارئ الطبقي والاجتماعي وحجمه ونوعية قراءاته وظروفها .

عمل (السيد ياسين) على فحص العمل الأدبي في كتابه (التحليل الاجتماعي للأدب) في ضوء هذا المنهج (التجريبي) من خلال تقصي النص الروائي (العيب) ليوسف إدريس في ضوء المجتمع ، متعاملا مع شخصيات الرواية وكأنها حالات اجتماعية واقعية . معتبرا النص الأدبي وثيقة يبحث فيها عالم الاجتماع عن الموضوعات والظواهر الاجتماعية [9]. ليكون بذلك السيد ياسين قد غلب مجال الاستقصاء في ماهو خارج نصي على ماهو داخليي نصي .

وإذا كانت المناهج السابقة قد تراوحت بين العناية بالمرسل والمرسل إليه والرسالة ، على أنها في الغالب ركزت على الجانب المضموني في العمل الأدبي على حساب الشكل . فإن منهج (سوسيولوجيا النص الأدبي) كما تبلور مع (بيير زيما) قد حاول الاستفادة من الأبحاث اللسانية والبنيوية المعاصرة ، ساعيا إلى بناء سوسيولوجيا خاصة بالنص الأدبي مولية الاهتمام بنيته اللغوية والرمزية . محاولا التخلص من النظرة الإيديولوجية الأحادية ، ومن مفهوم الانعكاس بوجيهة الآلي والجدلي .

ليكون بذلك هذا المنهج قد عمل على العناية بمجال الرسالة في جانبها الشكلي من حيث الوحدات المعجمية والتركيبية مع عدم إلغاء جانب المحتوى الذي هو متجسد في هذه الوحدات اللغوية .

وقد عمل على استثمار هذا المنهج في النقد الأدبي العربي عامة والمغربي خاصة . (سعيد يقطين) ، وهذا ما نجده في مقدمة كتابه : (انفتاح النص الروائي ، النص —السياق) إذ يصرح بكونه يطمح في هذه الدراسة إلى تحليل النص الروائي العربي باعتباره بنية دلالية . وهي بذلك تستفيد من أهم إنجازات نظرية النص وسوسيولوجيا النص الأدبي . وتحاول البحث عن دلالات النص الروائي العربي انطلاقا من دواخله .

فسعيد يقطين يهتم بمجال الرسالة في شقيها الشكلي والمضموني . هذا الثاني (في بنيته الاجتماعية والفكرية) ترصد ملامحه المرجعية من خلال النص الأدبي [10].

من خلال هذه المناهج والاتجاهات يتضح أن كل اتجاه في النقد السوسيولوجي أهتم بمجال في دراسته للظاهرة الأدبية

فعلم الاجتماع الوضعي حين مقاربته للأدب يهتم بالظروف الخاصة والعامة التي عاش فيها الأديب ، انطلاقا من تربية وثقافته وأحداث حياته المؤثرة ، ووضعه الأسري والاجتماعي وانتهاء بسمات عصره وأثر كل ذلك في إنتاجه الأدبي . أما علم الاجتماع الجدلي فيهتم أساسا بوضع الأديب الطبقي وبالوعي الذي يربطه بطبقية وبالمرحلة التاريخية التي عاش فيها انطلاقا من أن الأدب نشاط ذهني يمثل جزء من مكونات البنية الفوقية المحكوم بشروط البنية التحية ، وبعد ذلك تتفرع النظريات الأدبية داخل هذا العلم وتتوزع بين (نظرية الانعكاس) المر أوي للواقع ، وبين (نظرية التناظر البنيوي) التي تعطي استقلالا نسبيا للبنية الفوقية عن البنية التحية . وأما علم الاجتماع التجريبي فيهتم بتجميع المعطيات من الواقع الاجتماعي حول ظاهرة اجتماعية معينة ويعمل على تصنيفها وتحليلها ، وفي مقاربته للأدب فإنه يتعامل معه باعتباره (سلعة) قابلة للعرض والطلب ، فيهتم بدراسة سوق نشر المؤلفات الأدبية ، وتسويقها وتوزيعها واستهلاكها من قبل المتلقين ، وقد يهتم باجتماعية القراءة وبتاريخيتها [11] .

وفي الأخير أقول أن النقد الأدبي لاستفاد كثيرا من منجزات العلوم الإنسانية والاجتماعية وحاول استثمار مفاهيمها ومناهجها في بناء أسلوب للمقاربة يؤهله لإنتاج خطاب علمي مكتف بذاته ، وأصبح أن يتجاوز الدراسة الضيقة على الجانب الجمالي والفني ، فاحتكاكه بالعلوم المختلفة جعلته يأخذ بعدا أخرفي دراسته للنص الأدبي شكلا ومضمونا ، لأن النص أو الإبداع الأدبي بصفة عامة لا يكون دون إحساس وشعور أو لاشعور وفق محيط اجتماعي معين ، وهذا ما تجلى من خلال النقد النفسي الذي حاول الاهتمام بالمرسل أو الكاتب كونه يعتبر على ما يحسه وما يشعره ، وما هذا العمل الأدبي إلا صورة تعكس ما في داخله ووجدانه ، فجاء النقد الاجتماعي ليتجاوز ذلك إلى كل من الأديب والأدب والقارئ حتى تركز على هذه العناصر الثلاثة وعلاقتها بمحيطها ، فظهرت عدة اتجاهات اجتماعية كان اهتمامها على الجانب المضموني أكثر من الشكلي .

فمن العلوم والمعارف الإنسانية الأقرب إلى النقد في ميدان الأدب نجد علم النفس وعلم الاجتماع ، كونهما النقاط الأساسية التي ينطلق منها الإبداع الأدبي بمختلف ألوانه للتعبير عن بنية تحية وفتي محيط أو بيئة اجتماعية كتبت فيه ما تشاء وكونته كما تريد ، وبالتالي فهو (أي الأديب) ينتج ما يشعر وما يحس وما يرى وما يعيش من واقع هو محيط به ، والدراسة لا تكون إلا في جانبه النفسي والاجتماعي والفني والجمالي .

الهوامش :

1- بسام قطوسي ، إستراتيجيات القراءة : التأصيل والإجراء النقدي ، دار الكندي 1998--ص14.11

2- بسام قطوسي: مدخل إلى مناهج النقد المعاصر – دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر –الإسكندرية ص13.12.

3- د/ أحمد زكي:النقد الأدبي الحديث–أصولة واتجاهاته،دار النهضة العربية لنطباعة والنشر–بيروت ص:148–250.

4- بسام قطوسي :مدخل إلى مناهج النقد المعاصر –دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر –الإسكندرية – ص:65.

5- محمد بنيس : ظاهرة الشعر المعاصر بالمغرب ، مقاربة بنيوية تكوينية ، دار العودة ، بيروت ط 1 1979

6- ميشال عاصي : دراسات منهجية في النقد مكتبة الحياة ، بيروت ،ط1 1970.

7- عبد السلام بن عبد العالي:سوسيولوجيا الأدب عند لوسيان كولد رمان،مجلة أقلام عدد 04 فبراير 1977.

8- السيد ياسين – التحليل الاجتماعي للأدب – دار التنوير للطباعة والنشر ، بيروت ط2 1982 .

9- سعيد يقطين : انفتاح النص الروائي ، النص – السياق ، المركز الثقافي العربي ط1 1989.ص:05.

10- عبد العزيز جسوس : إشكالية الخطاب العلمي في النقد العربي المعاصر . المطبعة والوراقة الوطنية ، الداوديات ، مراكش ، ط1 2007 ص:141.